حقيقةُ المُسلم[١]

لا يعرِفُ التَّاريخُ غيرَ محمَّدٍ ﷺ رجلاً أفرغَ اللهُ وجودَه في الوجود الإنسانيِّ كلِّه ، كما تَنصبُ المادَّة في المادَّة ، لتمتزجَ بها ، فتُحوِّلها ، فتُحْدِثَ منها الجديد ، فإذا الإنسانيَّة تتحوَّل به ، وتنمو ، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها ، فما تبرح هذه الإنسانيَّة تنمو به وتتحوَّل .

كان المعنى الآدميُّ في هذه الإنسانيَّة كأنَّما وَهَنَ مِنْ طول الدَّهر عليه ، يَتَحيَّفُه[٢] ، ويمحوه ، ويتعَاوَرُه[٣] بالشرِّ ، والمنكرِ ؛ فابْتَعث الله تاريخَ العقل بآدمَ جديدٍ ، بدأتْ به الدُّنيا في تَطَوُّرها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسانُ على ذاته ، كما بدأتْ من حيث يُوجَد الإنسانُ في ذاته ؛ فكانت الإنسانيَّةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فَتَحَ لها طريقَ المجيء من الجنَّة ، والثاني فَتَحَ لها طريقَ العوْدة إليها : كان في آدمَ سرُّ وجود الإنسانيَّة ، وكان في محمَّدٍ سرُّ كمالها .

* * *

ولهذا سُمِّيَ الدِّينُ (بالإسلام) ؛ لأنَّه إسلامُ النَّفس إلى واجبها ؛ أي : إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعيَّة ؛ كأنَّ المسلم ينكِرُ ذاتَه ، فيُسْلِمُها إلى الإنسانيَّة ، تُصرِّفُها ، وتَعْتَمِلُها[٤] في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يمسِكُها على شهواته ، ومنافعِه ، ولكنْ للإنسانيّة بها الحظُّ .

وما الإسلامُ في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذَّات و(إسلامُها) طائعةً على الْمَنْشَط ، والمَكْرَه لفُروضها وواجباتِها ؛ وكلَّما نكَصَتْ إلى مَنْزِعِها الحيوانيِّ ؛ أسلمها صاحبُها إلى وازعها[٥] الإلهيِّ ؛ وهو أبداً يَرُوضُها على هذه الحركة ما دام

---

(١) كتبها لجماعة الكشاف المسلم في بيروت في ذكرى المولد النبوي الشريف . وانظر : « فترة جمام » و« عود على بدء » من كتاب : حياة الرافعي . (س) .

(٢) « يتحيفه » : تحيَّف الشيء : تنقَّصه من حافاته .

(٣) « يتعاوره » : اعتور القومُ الشيءَ ، وتعاوروه : تداولوه فيما بينهم .

(٤) « تعتملها » : اعتمل الرَّجل : عمل لنفسه .

(٥) « وازعها » : زاجرها . والوازع : الدافع الداخلي الذي يمنع الإنسانَ من سلوكٍ مُعَيَّن .

حيّاً ؛ فينتزعُها كلَّ يوم مِنْ أوهام دنياها ، ليضعَها ما بين يَدَيْ حقيقتها الإلهيَّة : يروضُها[1] على ذلك كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مرَّات مُسماةٍ في اللغة خَمْسَ صلوات ، لا يكون الإسلام إسلاماً بغيرها ، فلا غرو كانت الصَّلاةُ بهذا المعنى ، كما وصفها النبيُّ ﷺ هي عِمَادَ الدِّين .

* * *

بين ساعات ، وساعاتٍ في كلِّ مطلع شمسٍ من حياة المسلم صلاةٌ ، أيْ إسلامُ النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشَّاملة[2] القائمة على الطَّاعة للفرْض الإلهيِّ ، وإنكارٌ لمعانيها الذَّاتية الفانية التي هي مادةُ الشَّرِّ في الأرض ، وإقرارُها لحظَاتٍ في حَيِّز الخير المحض البعيد عن الدُّنيا ، وشهواتها ، وآثامها ، ومنكَراتها . ومعنى ذلك كلِّه تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمالُ الدُّنيا في جملتها طُرُقاً تتشتَّتُ فيها الأرواحُ ، وتتبعثر ، حتَّى تَضِلَّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتنكرها ، ولا تعرفها !

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ الحالة العقلية ؛ التي جاء الإسلامُ ؛ ليَهْدِيَ الإنسانيَّةَ إليها : حالة السَّلام الرُّوحانيِّ ؛ الذي يجعل حربَ الدُّنيا المهلكة حرباً في خارج النَّفس ، لا في داخلها ، ويجعل ثروةَ الإنسان مُقَدَّرةً بما يعامل الله والإنسانيَّةَ عليه ؛ فلا يكون ذهبُه ، وفِضَّتُه ما كتبتْ عليه الدُّول : « ضُرِبَ في مملكة كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتب عليه : « صُنِعَ في مملكة نفسي » ؛ ومن ثَمَّ لا يكون وجودهُ الاجتماعيُّ للأخذ حَسْبُ ، بل للعطاء أيضاً ، فإنَّ قانون المال هو الجمع ، أمَّا قانونُ العمل ؛ فهو البذل .

بالانصراف إلى الصَّلاة ، وجَمْع النِّيَّةِ عليها يستشعر المسلمُ : أنَّه قد حطَّم الحدود الأرضيَّةَ المحيطةَ بنفسه من الزَّمان ، والمكان ، وخَرَج منها إلى رُوحانيَّةٍ لا يُحَدُّ فيها إلا بالله وحدَه .

وبالقيام في الصَّلاة ، يحقِّقُ المسلمُ لِذاته معنى إفراغ الفكر السَّامي على الجسم

(١) « يروضها » : يُدرِّبها .

(٢) هذه هي حكمةُ صلاة الجماعة ، والحثّ عليها ، وكونها أفضل من غيرها ، وأنَّ الثَّواب الأكبر فيها وحدها . (ع) .

كلِّه ، ليمتزجَ بجلال الكون ، ووقاره ، كأنَّه كائنٌ منتصبٌ مع الكائنات يسبِّح بحمده .

وبالتولِّي شَطْرَ القِبلة في سَمْتها[١] الذي لا يتغيَّر على اختلاف أوضاع الأرض يَعرِف المسلمُ حقيقةَ الرَّمز للمركز الثَّابت في روحانية الحياة ، فيَحملُ قلبُه معنى الاطمئنان ، والاستقرار على جاذبيَّة الدُّنيا ، وقَلَقِها .

وبالرُّكوع ، والسُّجود بين يَدَي الله يُشْعِرُ المسلمُ نفسَه معنى السُّموِّ ، والرِّفعة على كلِّ ما عدا الخالق من وجود الكون .

وبالجلسة في الصَّلاة ، وقراءةِ التحيَّات الطَّيبات يكونُ المسلمُ جالساً فوق الدُّنيا يحمَدُ اللهَ ، ويُسلِّم على نبيِّه ، وملائكته ، ويشهَدُ ، ويدعو .

وبالتَّسليم الذي يَخرجُ به من الصَّلاة يُقْبِلُ المسلمُ على الدُّنيا وأهلِها إقبالاً جديداً : من جهتي السَّلام ، والرَّحمة .

هي لحظَاتٌ من الحياة كلَّ يوم في غير أشياء هذه الدُّنيا ؛ لجمع الشهوات ، وتقييدها بين وقتٍ وآخرَ بسلاسلها ، وأغلالِها من حركات الصَّلاة ، ولتمزيق الفَناء خمسَ مراتٍ كلَّ يوم عن النَّفس ؛ فيرَى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود ، فتشعرُ الرُّوحُ : أنَّها تنمو ، وتتَّسع .

هي خمسُ صلَواتٍ ، وهي كذلك خمس مرَّات يَفْرَغُ فيها القلبُ ممَّا امتلأ به من الدُّنيا ، فما أدقَّ ، وأبدعَ وأصدقَ قولَه ﷺ : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة ! »[٢] .

* * *

لم يكن الإسلامُ في حقيقته إلا إبداعاً للصِّيغة العمليَّة ؛ التي تنتظم الإنسانيَّةُ

---

(١) « سمتها » : السمت : القصد ، والهيئة .

(٢) كان محمد ﷺ يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتُها ؛ من شدَّة شوقه إليها ، فيقول : « أَرِحْنا بها يا بلال » ولا أفصح ولا أدقّ من تصوير نفسيته ﷺ ، وأشواق روحه العالية ؛ من قوله : « أَرِحْنا بها » فهذا كمالُ الاتصال بينه وبين خالقه . (ع) .

قلت : حديث : « أرحنا بها يا بلال » رواه أحمد (٥/ ٣٦٤) . وحديث : « جُعلت قرة عيني في الصلاة » رواه النسائي في عشرة النساء (١) وأحمد (٣/ ١٢٨ ، ١٩٩) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٨) .

فيها ، ولهذا كانت آدابُه كلُّها حرَّاساً على القلب المؤمن ، كأنَّها ملائكةٌ من المعاني ، وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحيّاً ، وقَع به التطوُّرُ في عالَم الغريزة ، فنقلَه إلى عالم الخلُق ، ثُمَّ ارتقى بالخُلُق إلى الحقِّ ، ثُمَّ سَما بالحقِّ إلى الخير العامِّ ؛ فهو سموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقَاتٍ ، وتدرُّجٌ إلى الكمال في ثلاث منازل ، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافةِ ثلاث حقائقَ .

وبتلك الأعمال ، والآداب كانت الدُّنيا المُسْلمةُ التي أسَّسها النَّبي ﷺ دنيا أسلمتْ طبيعتُها ، فأصبحت علىٰ ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هي ، وكأنَّها قائمةٌ بنواميسَ من أهليها ، لا على أهليها ؛ وكان الظَّاهرُ : أنَّ الإسلام يغزو الأممَ بالعرب ، ويفتَتِحها ، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ إقليماً من الدُّنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليم الأرض بالطَّبيعة الأخلاقيةِ الجديدة لهذا الدِّين .

وكأنَّ اللهَ تعالى ألقى في رمال الجزيرة روحَ البحر ، وبعثها بَعْثَه الإلهيَّ لأمره ، فكان النَّبي ﷺ هو نقطةَ المدِّ التي يفُورُ البحرُ منها ، وكان المسلمون أمواجَه التي غُسِلتْ بها الدُّنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأوَّلون كلامَ الله تعالى في كتابه ، وكلامَ رسوله ﷺ ، لا كما يسمعون القولَ ، ولكن كما يتلقَّوْن الحُكْمَ النَّافذَ المقْضيَّ ، ولم يجدوا فيه البلاغَةَ وحدَها ، بل رَوْعةَ أمرِ السَّماء في بلاغةٍ ، واتَّصلوا بنبيِّهم ، ثُمَّ بعضُهم ببعض ، لا كما يتَّصل إنسانٌ بإنسانٍ ، بل كما تتَّصل الأمواجُ بقوَّةِ المدِّ ، ثُمَّ كما يُمدُّ بعضُها بعضاً في قوَّةٍ واحدة .

وحقَّقوا في كماله ﷺ وجودَهم النفسيَّ ؛ فكانوا من زَخارِف الحياة وباطِلِها في موضع الحقيقة ؛ الذي يُرى فيه الشَّيءُ لا شَيء .

ورأوا في إرادته ﷺ النقطةَ الثَّابتةَ فيما يتَضاربُ من خيالاتِ النَّفس ؛ فكانوا أكبرَ علماء الأخلاقِ على الأرض ، لا من كُتُبٍ ، ولا علمٍ ، ولا فلسفةٍ ، بل من قلبِ نبيِّهم وَحْدَه .

وعرفوا به ﷺ تمامَ الرُّجولة ؛ ومتى تمَّتْ هذه الرُّجولةُ تمامَها في إنسانٍ ؛ رجعتْ له الطفولةُ في رُوحه ، وامتلك تلك الطبيعةَ التي لا يملِكُها إلا أعظمُ الفلاسفة ، والحكماء ، فأصبحَ كأنَّما يمشي في الحياة إلى الجنَّة بخُطُوَاتٍ مُسدَّدةٍ

لا تَزيغُ ، ولا تنحرِف ، فلا شرَّ ، ولا رذيلة ؛ ودنياه هي الدُّنيا كلُّها بشمسِها ، وقمرها ، يملكُها وإن لم يملك منها شيئاً ، ما دامت في قلبه طبيعةُ السُّرور ، فلا فقرَ ، ولا غِنى ممَّا يَشعرُ الناسُ بمعانيه ، بل كلُّ ما أمكنَ فهو غنىً كاملٌ ، إذ لم تَعُدِ القوَّةُ في المادَّة تزيد بزيادتها ، وتنقُصُ بنقصها ، بل القوَّةُ في الرُّوح ؛ التي تَتَصرَّف بطبيعة الوجود ، وتَدفع قُوَى الجسم بمثل دوافع الطُّفولةِ النَّاميةِ المتغلِّبة ، حتَّى لتجعلُ من النُّور والهواء ما يُؤتَدَمُ به مع الخبز القَفَار[1] ، كما يؤتَدَمُ باللَّحم ، وأطايبِ الأطعمةِ[2] .

وبذلك لا تتسلَّط ضرورةٌ على الجسم ـ كالجوع ، والفقر ، والألم ، ونحوها ـ إلا كان تَسلُّطها كأنَّه أمرٌ من قوَّةٍ في الوجود إلى قوَّةٍ في هذا الجسم : أن تَظْهرَ ؛ لتعملَ عملَها المُعْجِزَ في إبطال هذه الضَّرورة . وهذا الجنسُ من النَّاس كالأزهار على أغصانها الخضْر ؛ لو قالت شيئاً ؛ لقالت : إنَّ ثروتي في الحياة هي الحياةُ نفسُها ، فلَيس لي فقرٌ ، ولا غِنى ، بل طبيعةٌ ، أوْ لا طبيعة .

* * *

ولقد كان المسلمُ يُضْرب بالسَّيف في سبيل الله ، فتقَعُ ضَرباتُ السُّيوف على جسمه ، فتُمَزِّقُهُ ؛ فما يُحِسُّها إلا كأنها قُبَل أصدقاءٍ من الملائكة ، يلْقَوْنه ، ويعانقونه !

وكان يُبْتَلى في نفسِه ، وماله ، فلا يشعر في ذلك أنَّه المُرَزَّأ[3] المُبْتَلى يُعْرَف فيه الحزن والانكسار ، بل تَظهر فيه الإنسانيَّة المنتصرةُ كما يَظهر التَّاريخ الظَّافرُ في

---

(١) « الخبز القفار » : الخبز غير المأدوم .

(٢) عن ابن عباس قال : دخل رسولُ الله ﷺ يوم فتح مكة على أمِّ هانئ ، وكان جائعاً ، فقال لها : « أعندك طعام آكله ؟ » فقالت : إنَّ عندي لكسراً يابسة ، وإني لأستحيي أن أقدِّمها إليكَ ، فقال : « هَلُمِّيها » فكسرها في ماء ، وجاءته بملح ، فقال : « ما مِنْ إدام ؟ » فقالت : ما عندي إلا شيء من خَلٍّ ، فقال : « هَلُمِّيه » . فلما جاءتْ به صَبَّه على طعامه ، فأكل منه ، ثم حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « نِعْمَ الإدامُ الخَلُّ يا أمَّ هانئ ، لا يُقفِر بيتٌ فيه خَلٌّ » . (ع) .
قلت : الحديث رواه الترمذي (١٨٤١) .

(٣) « المرزأ » : المرزَّؤون : قومٌ مات خيارهم . الواحد : مرزَّأ .

بطله العظيم أصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمه بجراحٍ ، فهي جراحٌ ، وتشويهٌ ، وألمٌ ، وهي شهادة النَّصر !

ولم تكن أثقال المسلم في دنياه أثقالاً على نفسه ، بل كانت له أسبابَ قوَّةٍ وسموٍّ ؛ كالنَّسْر المخلوق لطبقَات الجوِّ العُليا ، ويحمل دائماً من أجل هذه الطَّبقَات ثِقْلَ جَناحيه العظيمين .

وكانت الحقيقة التي جعلها النَّبيُّ ﷺ مَثَلَهم الأعلى ، وأقرَّها في أنفسهم بجميع أخلاقه ، وأعماله : **أنَّ الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلمٍ لنفسه** ؛ إذ أنَّها واجبةٌ بكل مسلمٍ على غيره ، فلا تكون في الأمَّة إلا إرادةٌ واحدةٌ متعاونةٌ ، تجعل المسلم وما هو روح أمته تَعمل به أعمالها هي ، لا أعمالَه وحدَها .

المسلم إنسانٌ ممتدٌ بمنافعه في معناه الاجتماعيِّ حولَ أمَّته كلِّهَا ، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حول نفسِه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتَّاجر من التاجر ؛ تقول الأمانة لكليهما : لا قيمةَ لميزانك إلا أن يُصَدِّقَه ميزان أخيك .

ولن يكونَ الإسلامُ صحيحاً تامّاً حتَّى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه في أخلاق الله ؛ فما هو بشخصٍ يضْبِط طبيعتَه : يَقْهَرها مرةً ، وتقهَره مراراً ؛ ولكن طبيعةٌ تضبِط شخصها ، فهي قانون وجوده .

لا يضطرب من شيءٍ ، وكيف يضطرب ؛ ومعه الاستقرار ؟!

لا يخاف من شيءٍ ، وكيف يخاف ؛ ومعه الطُّمأنينة ؟!

لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ؛ ومعه الله ؟!

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا في طبيعةِ مَخَالبِك ، وأنيابك . . . ؟!

* * *